مدحت باشا

(١٢٣٨ — ١٣٠١ هـ) (١٨٢٢ — ١٨٨٣ م)

وهذا مصلح آخر من جنس آخر ؛ محمد بن عبد الوهاب مصلح دينى ، وهذا مصلح اجتماعى ؛ ذاك فى نجد ، وهذا فى استنبول ؛ ذاك لا شأن له بالسياسة ولا المدنية الحديثة ، إنما همه إصلاح العقيدة ؛ وهذا منغمس فى السياسة لامشكلة أمامه غيرها ؛ ذلك برنامج إصلاحه الرجوع إلى عهد الرسول ﷺ وصحابته لنعتقد ما يعتقدون ، ونعمل ما يعملون ، ونترك ما يتركون ؛ وهذا يرى الإصلاح فى الرجوع إلى المدنية الحاضرة ومناهجها فى الأمم الحية لنختار منها ما يصلح لنا ويتفق ومواقفنا ، دارسين فى إمعان كيف شقّ الأوربيون طريقهم إلى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وكيف تعثّروا وكيف نهضوا ، فنتعلم من خطئهم وصوابهم ، ونقتبس خير ما أنتجته عقولهم .

* * *

لقد ولد فى عهد السلطان محمود ، ونَضِج شبابه فى عهد السلطان عبد المجيد ، وبدأت كهولته فى عصر عبد العزيز ، وانتهت فى عهد عبد الحميد .

جاء والدنيا مدبرة عن الدولة العثمانية ، وحركة الجَزْر تلى حركة المدّ ، والمملكة تنقص من أطرافها ، ويدبّ الفساد فى داخلها .

يقع الظلم على سكانها المسلمين والنصارى على السواء ، ولكن المسلمين ينادون بالإصلاح فى هدوء وإشفاق ، والنصارى من ورائهم أمم تحميهم ، وتتخذ ظلمهم وسيلة للتدخل فى شؤون الدولة بدعوى حمايتهم ، والعمل على تحريرهم ،

مدحت باشا

فأصبحت الدولة وكلّ يوم تُقتطع منها ممالك ، وكل يوم تُعقد معاهدات تنقص حقوقها وتُفرَض عليها بالتهديد والوعيد .

حكام فى كل ولاية يحكمون البلاد بعقول ضيقة وشهوات واسعة ، ترَف فى المظهر، وسَخَف فى المخبر ؛ لايقيدهم قانون ، ولايردعهم عدل ، ولا يرون للشعوب حقًّا إلا أن تؤمر فتطيع ، وتُنتهب فتصبر ؛ بل لا يكفيهم الصبر على المصيبة ، وإنما يتطلبون المدح والثناء عليهم فى ظلمهم وطريقة حكمهم ، فمن امتعض من ذلك فهو ثائر ، ومن شكا فهو كافر ؛ فأورث ذلك الهجرة عند من احتفظ بإبائه ، والذل والهوان عند من لَصِقَ بأرضه .

لا عناية بصحة ولا تعليم ، فالأمراض فاشية ، والجهل عميم ، والمسلمون فى ذلك أسوأ حالا من المسيحيين ، لأن الجمعيات المسيحية فى الأمم الغربية تعين مسيحيّ الشرق بفتح المدارس لهم ، ونشر التعليم بينهم ، والمسلمون حائرون بين إقدام على التعلم فى هذه المدارس مع التعرض لما يمسّ دينهم ، وبين الاحتفاظ بدينهم ومعه الاحتفاظ بجهلهم .

والفقر ضارب أطنابه [1] بين الشعوب لضعف وجوه الاستغلال ، فلا زراعة صالحة ، ولا صناعة ناجحة ، فهذه كلها تدار بيد أضعفها الفقر ، وعقل أضرّه الجهل ، وعقيدة أفسدها التخريف ؛ ثم عدم اكتراث الناس لما تنتجه أيديهم وأرضهم ، إذ ليس يحميه عدل حكامهم .

الجنود فى الدولة لا تزال قوية شجاعة على رَغْم كل ذلك ، تحتقر الموت وتستعذبه ؛ وحالتها المعنوية عالية رفيعة ، ولكن لا نظام لها على النمط الحديث ، ولا نظام فى الإمداد بالآلات والعُدد والغذاء ؛ فإن انتصروا فى بعض المواقع فبفضل قوة إيمانهم وسمو روحهم ، وعلى الرغم من سوء تغذيتهم ، وضعف عدتهم .

(١) ضارب أطنابه : مطبق . والأطناب : حبال الخيمة .

وتلك حال لاتبشر بخير دائم . والأمم الحية حولهم كل يوم تُعِدّ جديداً من الآلات ، وتستكمل نقصاً فى النظام ، وتتخذ الأساليب الخفية والظاهرة فى الظَّفَر بالأعداء ؛ فكيف ينفع بقاء القديم وسير الأمور فى مجراها العتيق ؟

وهذه الدول من حولها أحست ضعفها ، وشعرت بدنو أجلها ، فهى كل يوم تنصب الشباك حولها ، وتتقن صنعها فى دقة ومهارة ، ولكل دولة أساليبها فى الحبائل ، وطرقها فى الصيد ، وكل دولة تصطنع من الدولة رجالا هم عيونها وعُدَّتها ووسائلها .

والمملكة خليط من عناصر شتى يختلف جنسها ، وتختلف لغتها ، ويختلف دينها ، ولكل عنصر هوى ، ولكل جنس أسباب متصلة بأمم أخرى تستهويها وتستنجدها .

فلا المالية صالحة ، ولا الإدارة صالحة ، ولا الجيش صالح ، ولا الأمة متحدة النوازع والآمال والآلام .

وزاد الأمر سوءاً أن السلطان عبد العزيز جاء ناقماً على الحالة التى وصلت إليها الأمة ، وانتقد أخاه عبد المجيد فى تصرفاته ، وفى إسرافه فى شهواته ، وفى تبذيره المال ، وعدم نظره إلى شؤون الدولة كما ينظر إلى نفسه ، فأعلن أنه آت لإصلاح المفاسد ، والأخذ بيد الشعب ، والاقتصار على زوجة واحدة ، والاقتصاد فى نفقات الحريم ، ولكن سرعان ماتبددت هذه الوعود ، وخطا فى سبيل البَذْخ[1] والترف والنعيم والإسراف أضعافَ ما كان ينتقده من أخيه ! وارتكب فى عهده غلطتين كبيرتين : تقويته عواطف رعاياه المسلمين فى أنهم أولى بالتفضيل فى مزايا الدولة فى المعاملة والمناصب ونحو ذلك ، وأن ليس يصح أن يساويهم رعاياه المسيحيون فى ذلك ، فأوقد بذلك شعور البغضاء والحقد وحب الانتقام بين عناصر الأمة الواحدة ، ومهد الطريق للدول الأوربية أن تتدخل فى حماية أهل دينها .

---

(١) البذخ : التعاظم .

والغلطة الثانية : وقوعه فى الدَّين من المصارف الأجنبية لقلة دخل الدولة وكثرة إسرافه . نعم ، إن بعض هذا المال أنفق فى إصلاح الجند والبحرية ، ولكن كثيراً منه أنفق فى بناء قصوره الكثيرة الفخمة وما تحوى من أسباب الترف والنعيم — مع أنه لما أراد سعيد باشا والى مصر الاستدانة بعث إليه بكتاب طويل مملوء بكل الحجج التى يمكن أن تقال فى سوء عاقبة الاستقراض وضرره بالممالك — فكان هذا أيضاً وسيلة من وسائل التدخل الأجنبى ؛ هذا إلى اعتداده بنفسه ، واستبداده برأيه ، وتركيز أعمال الحكومة كلها فى شخصه ؛ فهو مرجع كل شىء ، لا يسمع نصيحة ناصح ، ولا رأى مجرب ، ويخشى الذكاء والعلم والثقافة الواسعة ومعرفة بواطن الأمور ، لأنها كلها تؤدى إلى مراقبة أعماله ومحاسبته على إسرافه .

وجاء السلطان عبد الحميد فزاد فى الطُّنبور نغمة بل نغمات ؛ لقد لعب خوفه على شخصه برأسه ، وقد سمع من التاريخ أن كثيراً من أجداده خُلعوا أو قتلوا ، وهذا بالأمس القريب عبد العزيز خلع وقيل قتل، فليحذر أن يُمثَّل به هذا الدور؛ ثم ذكاء نادر ، ومال كثير ، وسلطان كبير ، كل هذا يوجِّه للمحافظة على شخصه أن يُمس بسوء ، فلا تذكر الملة والأمة فى الصحف والمجلات ، بل تذكر «الذات الشاهانية » متوجة بالألقاب الضخمة الفخمة ، فهو السلطان الأعظم ، والخاقان الأفخم ، وسلطان البرين والبحرين ، وإمام الحرمين الشريفين ؛ وهو ظل الله فى أرضه ، المخوف بألطافه الصمدانية ، وعنايته الربانية .

ويصادر الكتاب إذا كان فيه « الأئمة من قريش » . وتمنع « العقائد النسفية » من الطبع لأن فيها فصلا فى الإمامة وشروط الخلافة ؛ وكل كتاب يطبع فى الشام أو العراق أو الآستانة لا بد له من « رخصة جليلة » ؛ ويجمع كتاب كان يدرس فى «مكتب الحقوق » ويحرق لأنه وردت فيه جملة مضمونها

أنه إذا اختلت دولة من الدول يكون للدولة المجاورة الحق فى طلب إصلاحها .

وخطيب الجمعة يتحرى الحديث الذى يذكره فى الخطبة ، فلا يكون مما ينهى عن ظلم ، ولا مما يشير إلى حق رعية على راع ، ولا نحو ذلك ؛ ولذلك يغلب أن يكون الحديث : « إن الله جميل يحب الجمال » .

والجواسيس لا عِداد لها ، والجاسوسية سبيل الارتقاء ، وعشرة آلاف جندى يقفون للمحافظة على حياة السلطان وإظهار أبهته وجلاله إذا خرج للصلاة يوم الجمعة ، والقصر مملوء بالمشعوذين والدجالين من المشايخ ، يختلقون رؤيا يزعمون أنهم رأوها ، أو يفسرون حلما ، أو يوقعون بمن يقف فى سبيل دجلهم . والأمور تدار ، والمشاكل السياسية تحل ، بمثل هذه الرؤى ، وآراء هؤلاء الطَّغام[1] .

* * *

فى هذه الأجواء عاش مدحت باشا وكافح وجاهد حتى مات .

ما أشق الإصلاح على من يعمل فيها ! فأنفاسه معدودة عليه ، وحركاته وسكناته تسجلها الجواسيس . وهم لا يكتفون بما يعمل ، بل يزيدون عليه ما لم يعمل . ويؤولون ما يصدر عنه تأويلا يزيد فى ريبهم وقربهم . يخلص فى عمله فيقال إنه يرمى إلى أخطر غاية ، ويُعزل من عمله فيقال إنه يدبر المكايد ، ويبعد لعمل خارج العاصمة فيقال إنه يسعى للاستقلال بولايته ، ويعمل للدستور فيقال إنه يريدها جمهورية ؛ وهكذا وهكذا . فى كل خطوة عقبة ، وفى كل فكرة وساوس ، وفى كل حركة دسائس ؛ وليس يحتمل مثل هذا إلا أولو العزم الذين يدأبون مهما عُذبوا ، ويعملون مهما اضطُهدوا ؛ عقيدة تتملكهم أنهم ليسوا ملكا لأنفسهم ولا لأسرتهم ، إنما هم ملك لفكرة استحوذت عليهم .

---

(١) الطغام : ضعاف العقول .

ومبـدأ غمر مشاعرهم ؛ أما غيرهم فسرعان ما يعودون من منتصف الطريق ، سائلين الله السلامة ، مكتفين بأول عذاب نالهم ليستريح ضميرهم ، ويلقوا التَّبِعة على سواهم . وكان مدحت من هؤلاء الذين فى خُلُقهم حميّة ، وفى طبعهم تحدٍّ للشر ، وثبات على الجهاد ، وجلد على تحمل الألم حتى يلفظ آخر أنفاسه وعار عليه أن يتأوّه .

* * *

ولد مدحت فى استانبول ؛ وكان أبوه « الحاج حافظ محمد أشرف » عالما دينيًّا تولى بعض أيامه القضاء الشرعى فى بعض الولايات . فأنشأه أبوه تنشئة دينية ، فحفّظه القرآن وهو فى العاشرة ، ولقب بالحافظ ، وهو لقب لكل من يحفظ القرآن من الأتراك ، فكان اسمه الحافظ أحمد شفيق ؛ أما مدحت الذى غلب عليـه فهو اسم ديوانىّ . والتحق بالديوان الهمايونى يتعلم الخط الديوانى ، وتنقل مع والده فى الولايات التى تولى فيها القضاء يتعـــلم فى مكاتبها ؛ حتى إذا عاد والده إلى الآستانة ألحقه بأحد أقلام الحكومة يساعد الكتبة ويتعلم منهم بعض الوقت ؛ والبعض الآخر يقضيه فى جامع الفاتح ، وكانت فيه حلقات الدروس تشبه حلقات الأزهر ، لكل شيخ حَلْقته وتلاميذه . فكان يتعلم هناك اللغة العربية والفارسية والدروس الدينية والنحو والمنطق والفقه والبلاغة والفلسفة التى كانت تسمى الحكمة ؛ وظل على هذه الحال إلى أن ناهز العشرين ، تلميذاً فى دواوين الحكومة وتلميذاً فى جامع الفاتح .

وهى ثقافة — كما ترى — ضعيفة ، فلا تاريخ ولا جغرافية ولا رياضة ولا لغة أجنبية ، ولكن قد يعلّم الزمن العقل المستعد أكثر مما تعلّمه المدارس النظاميـة والبرامج الثقافية ، ولذلك نراه يشعر بنقصه الثقافى إذا كبِر فيطالع بنفسه الكتب . ولما جاوز الخامسة والثلاثين رأى الحاجة الثقافية والسياسية ماسة إلى تعلم لغة

أجنبية ، فتعلم اللغة الفرنسية ، فكان يدرسها وهو يشتغل فى (وظيفته) .

وشىء آخرُ أفاده فائدة كبرى فى ثقافته العملية ، وهو سياحته فى أوربة لدرس النظم السياسية والاجتماعية التى أصلحت من شأنها ، وعالجت بها أمثال المفاسد التى تعانيها تركيا ؛ فحصل على رخصة للسفر سنة ١٢٧٤ وسنه إذ ذاك نحو ست وثلاثين ، فأنفق فى سياحته هذه نحو ستة أشهر ، زار فيها باريس ، ولندن ، وڤينا ، و بلجيكا ؛ وكانت زيارته زيارة درس واستطلاع؛ كيف تنظم الدول ماليتها ، وكيف تسوس أمورها ، وما نظام الحكم فيها ، وما علاقة شعوبها بملوكها ، وما أهمّ وسائل العمران عندهم ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التى ملأت ذهنه ، وأراد أن يتطلب الإجابة عنها من كل مملكة زارها — وفى الوقت عينه أراد من سياحته أن يتقن اللغة الفرنسية التى تعلمها على كِبَر ، فتم له ما أراد بعقله المتفتح ، وهمته العالية ، واستقامته التى أخذها عن دينه .

ولذلك كان مزيجاً غريباً ؛ محافظةً على الصلاة وسُبْحة ، ومعرفة بشؤون الدنيا ، واطلاع واسع على تيارات العالم وأسس المدنية الحديثة ، ودَرْوَشة ويقظة .

أول ما لفت الأنظار إليه فى تركيا أنه شبّ صريحاً لا يتقن فن المجاملة ، حادًّا لا يكظِم ، حارًّا فى تنفيذ ما رأى فى وسط بارد بطىء ، مخلصاً لفكرته ، على حين أن كثيراً ممن حوله إنما يخلص لشخصه ؛ تربى فى مدرسة كبرلى باشا ورشيد باشا وعالى باشا ، وتعلم منهم القوة والتصميم ، والقدرة على التنفيذ ؛ فلما خلفهم من لا يملأ كراسيّهم اصطدم بهم . تولى محمد باشا القبرصلى « صدراً أعظم » ، وكان بينه و بين مدحت إحن وأحقاد ، واندلع لهيب الثورة إذ ذاك فى البلقان ، واحتاجت إلى رجل شديد ، فرماها القبرصلى باشا بمدحت . لعله يفشل أو يُقتل فيستريح منه ، و إن نجح فلا بأس ، فأقل ما فى الأمر أنه أبعده عن وجهه . فسافر مدحت ومعه قوة عسكرية ، وقضى ستة أشهر فى قمم الجبال ومغاورها يقبض

على أشقيائها ، وأثبت إدانة أربعـــة منهم وأعدمهم ، وحبس ثمانين أرسلهم إلى الآستانة ، وهدأت الفتنة ووضع مشروع الإصـــلاح ، فكان ذلك ممـا لفت الأنظار إلى قوته وحزمه .

كما لفت الأنظار إلى حسن إدارته عندما عين والياً فى الصّرب و بلغاريا ، وقضى فيها أربع سنوات كان فيها مجدداً حقًّا ، يختلف عن سائر الولاة العثمانيين : بَث المدارس فى أنحـاء الولاية ، وأنشأ المستشفيات ، وأصلح من الطرق نحو ألفى ميل ، و بنى نحو ١٤٠٠ جسر ، فإذا أعوزه المـال الرسمى حض الأهالى على التبرع فأجابوه ، بعد ما لمسوا قيمة الإصلاح فى تحسين حالهم ؛ وأهم ما تمتاز به إدارته — مما كان جديداً فى نظر العثمانيين — عدم تفرقته فى سياسته و إدارته وعدله بين مسلم ومسيحى ، ثم شدته المتناهية على العصاة ومثيرى الدسائس ، ومعاقبته لهم بما يؤمّن البرىء ، و يردَع المسىء ؛ فأصبحت بفضله هـذه المقاطعة على فقرها وكثرة فتنها مضرِبَ المثل فى الغِـنَى والأمن أيامَ حكمه من غير أن يكلف الدولة مالا.

كل هذا كان إرهاصاً[1] بما سيكون ، إذا أسندت إليه شئون الدولة .

— ٢ —

إن ضعف الدولة العثمانية الذى ذكرنا ، وعدم كفاية السلاطين المتأخرين ، صيّرهما مشاكل فى منتهى التعقيد ، فعناصر الدولة متعددة ، ويكفى البلقانُ وحدَه — بما يشمل من البوسنة والهرسك وسر بيا وألبانيا واليونان و بلغاريا ورومانيا — وما يقطن فيه من أمم كثيرة متناقضة المطالب أن يُقِضّ مضجع أية دولة مهما بلغت من القوة ، وخاصةً بعد ما جاءت عدوَى القومية فأثارت نوازع كل عنصر من هذه العناصر نحو الاستقلال ، فكيف بالدولة العثمانية ، وكيف ذلك مع الأعيب

(١) إرهاص : علامة ودلالة .

الدول المختلفة و إثارتها لهذه العناصر ؟ هـذا إلى تعدد المذاهب الدينية النصرانية وما بين كنائسها من خلافات لا تنتهى . فنشأ عن هـذا كله ما سمى « المسألة الشرقية » ويعنون بها « النزاع بين عناصر الأمم التركية من جهة ، ودخول الدول العظمى فى هذا النزاع لتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى » .

وسوء الحالة الداخلية والحالة الخارجية يتمخض — عادة — عن عدد من المفكرين فى هذه المشاكل، يقترحون فيها ما يَرَون من ضروب الإصلاح؛ ومن هذا نشأت أنواع من الإصلاح متسلسلة تسمى فى عرف الأتراك « التنظيمات الخيرية » ويريدون بها الإصلاحات التى يراد بها إنقاذ الدولة العثمانية من ضعفها ، وعلاج مشاكلها فى الداخل والخارج ، من عهد السلطان محمود . وكان من أشهر هـذه الإصلاحات أو التنظيمات القانونية المعروف بخط « كُلْخَانه» الذى صدر سنة ١٩٣٩ فى عهد السلطان عبد المجيد ، والذى سعى إليه محمد أمين عالى باشا ، وكان أهمّ ما يتضمن هذا « الخط » حماية النفس والملكيّة من غير تفرقة بين جنس أودين ، و إلغاء نظام الالتزام ، ومساواة الرعايا مهما اختلف دينهم أمام القانون ، وأن جميع المجرمين يجب أن يحاكَموا محاكمة علنية ، والمساواة فى الفرص أمام الجميع لتولى الأعمال الحكومية ، وتجنيد غير المسلمين مع المسلمين ، و إصلاح الإدارة والشرطة والضرائب والطرق ، و إنشاء المصارف إلخ .

ولكن هذه الإصلاحات كان يعترض تنفيذها صعوبات جمة : أهمها السلطان — وأكثر السلاطين كان يرى أن هذه الإصلاحات تحدُّ من إرادته — ورجال الدين لغضبهم على التشريع المدنى ، و بعض الرعايا الأجانب لأن هـذه المساواة تحرمهم امتيازاتهم القديمة ، و بعض الدول الأجنبية لأنها لا يسرها أن تصلح الدولة . فكانت كل « التنظيمات » التى توضـع لا تلبث أن تصبح حبراً على ورق .

وفى هذا الوسط الشائك جدًّا حاول مدحت باشا أن يضع إصلاحه ، فرأى أن الإصلاح الذى يجب أن يسود المملكة العثمانية هو الحكم الديمقراطى على نَمَط ما رأى فى إنجلترا وفرنسا ، ومظهر هـذا الحكم هو الدستور ، وإنشاء المجالس النيابية ، وتمثيل كل عنصر من عناصر الدولة وكل قطر من أقطارها فى هذه المجالس ؛ وبعبارة أخرى أن تحكم الأمة نفسَها بنفسها لا أن يحكمها السلطان بإرادته ونوازعه والمقربين إليه الذين يخدمون أغراضهم ومصالحهم .

كان يرى أن كل الأمم الأوربيـة مرت بهـذا الدور الذى تمرّ به الدولة العثمانية ، ولم ينقذها إلا الحرية ، فهى التى تربى الأمم ، وتحيى النفوس ، وترد للمرء حقوقه وتُشعره بشخصيته ، وتضمن له العدل ؛ والحرية هى التى تُولّد الدستور الذى يبث الطمأنينة بين أفراد الأمة ، ويسوى بين الأفراد على اختلاف دينها وعناصرها فيؤلّف بين قلوبها ، وهو الذى يتيح الفرص لكل كُفْء قادر ، ويسدّ الطريق أمام كل دسّاس ماكر .

لقد عانت إنجلترا وفرنسا ما نعانى ، ووقع على أفرادها الظلم كما يقع علينا ، ولكنها نجتْ من ذلك كله بتحرير شعوبها ، ووضع دساتيرها ، والحزم فى السير عليها ؛ ذلك حال انجلترا قبل دستورها وبعده ، وحال فرنسا قبل ثورتها وبعدها ، هدموا الاستبداد ، وأحلّوا محلّه حياة الحرية الصحيحة ، فلو فعلنا ذلك وأعلن السلطانُ الدستور ، وسرنا عليه فى حزم لانتظمت إدارتنا وماليتنا ، وشعرت عناصر الدولة المختلفة بالتساوى بينها ومشاركتها فى الحكم وتحقيق العدل فاطمأنت ، ولو فعلنا ذلك لم تجد الدول المختلفة وسيلة للتدخل فى شؤوننا فكفّت يدها ، وإذا تدخلت ظهر تعنتها فلم تجد رأياً عامًّا يُساندها — بهذا الدستور يصبح الحكام فى كل ولاية مسئولين أمام البرلمان ، وبعبارة أخرى أمام الأمة ، فينتبه الحاكم عينه ، ويحُدُّ من شهوته ، ويتحرى العدل ، وإلاّ طار من منصبه .

الدستور علم ينشر بين الشعب ، وغنى يسبب طمأنينة الشعب ، وعدل بين أفراد الشعب ، ويقظة للرأى العام ، وتفتح للملكات ، ونشاط للقُدَر التى كَبَتَها الاستبداد .

فلا حياة للدولة العثمانية إلا بدراسة النظم الديمقراطية فى الأمم الأوربية ، واختيار أنسبها مما يتفق وحالة الدولة وظروفها ومركزها ، ثم سَنّ تشريع لها ، ثم إحاطته بسياج من القوة حتى لا تتلاعب به أيدى العابثين المفسدين .

إلى هذا انتهى مدحت بعد طول درسه وتفكيره وتقليبه وجوه الإصلاح المختلفة .

لم يكن مدحت باشا وحدَه هو الذى يفكر هذا التفكير ، بل كان حوله شباب أحسّ إحساسه وشعر شعوره ، وأنكر الاستبداد ، وحاول الخلاص منه ، وعكف على قراءة التاريخ والسياسة ، والنظم الأوربية ، ووُجدت جمعية فى باريس على رأسها مصطفى باشا فاضل تنقُد الدولة العثمانية ، ونظام الحكم فيها ، وتجاهد فى طلب الإصلاح . ومصطفى فاضل هو صاحب الكتاب المفتوح المشهور الذى ترجمه فتحى زغلول باشا « من أمير إلى سلطان » والأمير هو مصطفى فاضل هذا ، والسلطان هو السلطان عبد العزيز ، والكتاب هو أول كتاب من نوعه يوجهه أمير عثمانىّ إلى السلطان فى مثل هذه الصراحة والقوة .

كان رأس هذه الحركة وعقلها المفكر وحكيمها الرزين هو مدحت باشا . وجاء دور التنفيذ ، يريد مدحت باشا ورجاله وشبابه الحكم الديمقراطى والدستور والحرية ويصطدمون بالسلطان عبد العزيز وحاشيته وأعوانه ، فهم لا يريدون ذلك — يرى مدحت أن لا أملَ للحياة إلا بالشورى ، ويرى عبد العزيز أن الشورى تسلُبه سلطانه ؛ يرى مدحت أن الدستور لا بد منه ، فهو يعيد إلى الأمة حقها فى الإشراف على الحكم ، ويضمَن العدل والمساواة ، ويبعث

الإخاء ، ويحمى الأمة من شهوات الأمراء والسلاطين ، ويوحّد بين عناصر الأمة المختلفة ؛ ويرى عبد العزيز وحاشيته وكثير من رجال الدين وبعض رجال السياسة أن الحكم النيابى لا يصلح للدولة العثمانية لاختلاف العناصر فيها وعدم التجانس ، وميل كثير من الطوائف المسيحية إلى ترويج مصالح الأمم التى ترتبط بها ، وعدم بلوغ الأمة حدّا من العلم يهيئها لهذا الحكم وتفضيل مصلحة الوطن على المصلحة الشخصية إلخ .

إذ ذاك ظهر الصّراع بأجلى مظاهره ، وانجلى الغبار عن معسكرين متميزين بأعلامهما وجنودهما : هذا معسكر مدحت باشا على رأس حزب كبير من الكبراء والوزراء والأمراء وطائفة كبيرة من الشباب ، وهذا معسكر على رأسه السلطان عبد العزيز وحوله الحاشية ومحمود باشا نديم رئيس الوزارة ، وهو يُمِدُّ السلطان بكل ما يحتاج إليه من أموال الدولة ، ينفق منه أقله فى المصلحة العامة وأكثره فى شهواته ، ثم يؤيده كثير من المعمَّمين من رجال الدين قد اشتُرِيت ذممهم بما أُغدق عليهم من أموال الأمة ، فهم يُسمُّون كل حركة تدعو إلى الإصلاح فتنة ، ويقولون : سلطان غَشُوم[1] خير من فتنة تدوم .

وكان لكل معسكر أيضاً أدباؤه وكتّابه وشعراؤه ، فمع مدحت باشا كتّاب من الطبقة الأولى يحررون فى الصحف الفرنسية والتركية والعربية . وأبدع « نامق كمال » أدباً تركيًّا يتغنّى بالحرية فى أسلوب جديد ، جميلٍ فى بساطة ، واضح فى قوة ؛ وأدب آخر رجعىّ يُشِيدُ بذكر السلطان ويهجو دعاة الحرية والإصلاح ، ومنهم صاحب جريدة « الجوائب » وكتّابها .

والدول الأوربية نفسُها تدخل فى هذا المعترك ؛ فإنجلترا تعطف على مدحت لأنها بحكم نظامها تميل إلى الديمقراطية وإلى الدستور ، ولأن فى صلاح تركيا

(١) غشوم : ظالم .

وهدوئها ما يعوق مطامع روسيا ؛ وروسيا تؤيد السلطان ومحمود نديم ، وسفيرها فى تركيا « إيغناتيف » يثير الفتن والثورات حتى يحقق مطامع روسيا إذ ذاك .

ويركز مدحت برنامجه فى كلمات فيقول : « إن التبذير فى الدولة قد بلغ درجة لا تطاق ، فنظارة المالية ترسل الأموال إلى المابين ، فيصرفها السلطان فى ملذّاته ، والنظار يبيعون الوظائف بيع السلع ؛ فالوالى يشترى وظيفة من الصدر الأعظم ويذهب إلى الولاية فيستغل أهلها بأنواع الظلم ، حتى خَرِبت الولايات ، ووقعت الدولة فى أزمة شديدة ، ولا سبيل إلى الخلاص منها إلا بتبديل الإدارة الحالية ، وتبديلها يكون بإنشاء مجلس نيابى ، وجَعْل النظار مسئولين أمامه ، وأن يكون هذا المجلس قوميًّا ، فلا يفرق فى انتخابه بين المذاهب والعناصر — وأن يوضع الوُلاة فى الولايات تحت المراقبة الشديدة فلا يعبثوا بمصالح الرعية » .

كل هذه المعانى تركزت فى كلمة واحدة اسمها « الدستور » .

ها هى الدعوة تنتشر ، والنفوس تغلى ، وأخطاء السلطان عبد العزيز المتتابعة تزيدها غلياناً .

تحت ضغط الحوادث أبعد الصدر الأعظم محمود باشا نديم ، حبيب السلطان عبد العزيز لأنه يمده بما شاء من أموال الدولة ، وحبيب الحاشية كذلك ، وحبيب سفير روسيا فى الآستانة ، وحبيب ذوى المناصب من رجال الدين ؛ وعُين مدحت باشا صدراً أعظم ، وهو المكروه من كل هؤلاء ، والمحبوب من الطائفة التى تغلى لطلب الإصلاح .

فما استقر على كرسيه حتى أعاد المنفيين الذين نُفوا لاتهامهم بمشايعة حركة الإصلاح ، وأعاد تأسيس ميزانية الدولة على أساس ثابت لا أساس صورىّ كما فعل محمد نديم ، وضيق على السلطان عبد العزيز وحاشيته فلم يمدّهم بالمال الذى يشتهون ، وبتّ فى المشاكل الخارجية بما أصلحها ، وتوجّه إلى الإصلاحات

الداخلية فاهتم بربط البلاد البعيدة بالدولة ، فوضع مشروع خط حديدى يربط العراق بالدولة بإنشاء خط بين بغداد وطرابُلس الشام . واختار مهندساً فرنسياً لذلك كلفه وضع المشروع وتخطيطه واكتشاف أقرب طريق إلى ذلك ، ورسم الخرائط له فى نظير مائتى ألف ليرة ، ودبر المال لذلك المشروع بالاتفاق مع إنجلترا على دفع ثلاثة ملايين من الليرات فى نظير نقل بريد الهند على هذا الخط ، كما وضع مشروع إنشاء الخطوط التلغرافية فى بلاد الحجاز ، وإنشاء طريق حديدى بين دمشق وبغداد ، ومد الأسلاك التلغرافيـــة بين دمشق والحجاز واليمن ، وفعلا أُحضرت الخُشُب والأدوات لإنشاء خط بين القدس وجُدَّة ، ورأى أن ذلك لا يكلف الدولة كثيراً ، فتلغرافات الحجاج تعوض النفقات فى سنين قلائل .

ووضع المكاييل والموازين على أساس عَشْرى ، ووحَّدها بين أجزاء الدولة ، وعارض أشد المعارضة فى منح الخديو إسماعيل باشا فرماناً يبيح له عقد قروض من الدول الأجنبية وقال : « إنه إذا أبيح له ذلك تدخَّلَ الأجانب فى شؤون القطر المصرى ، وضاع استقلاله الإدارىّ والسياسىّ معاً ، وتدخل الأجانب يوماً ما فى شؤون تلك البلاد بحجة حفظ أموالهم » ، فعل هـذا مع أن السلطان كان قد وعد إسماعيل باشا بإصدار هذا الفرمان .

نَمَطٌ[1] جديد فى الوزارة لم يألفه عبد العزيز ، فقد ألفَ أن طاعته غُنْم وإشارته حُكم . ولذلك لم يلبث مدحت فى الوزارة إلا خمسة وسبعين يوماً اعتزل العمل بعدها وضاعت كل مشروعاته ، وخسِرت الحكومة مائتى ألف ليرة للمهندس الفرنسى واضع مشروع خط بغداد من غير أن تستفيد شيئاً .

ثم رأيناه وزيراً للعدل فى وزارة أسعد باشا ، ثم فى وزارة شروانى زاده

(١) النمط : المذهب والنوع .

محمد رشدى باشا ، فمكنته هـذه الوزارة الأخيرة أن يَعْكُفَ على وضع النظم واللوائح لإصلاح الدولة .

وكتب مدحت إلى عبد العزيز كتاباً ليناً فى مظهره شديداً فى جوهره ، قال فيه: « لقد صرحتم جلالتكم فى خطاب العرش بأنكم تلتزمون خطة الإصلاح المنشود ، ومع هذا فقد ساء الحال ، وأنتجت كثرة تغيير موظفى الدولة القلقلة والاضطراب ، وضل أكثرهم الطريق ، ولم يسيروا وفق مقصدكم ، بل خرجوا عن جادَّة [1] الاستقامة وأفسدوا ما أحدثه الإصلاح ، واختلت مالية البلاد ، وحَدَا ذلك بالناس إلى نشر الأراجيف [2] فى داخل البلاد وخارجها، وخاف الناس أن ينتج هذا انقراض الدولة .

« وقد اضطرتنا وطنيتنا إلى عدم السكوت والوقوع فيما لا تُحمد عقباه ، فلجأنا إلى أعتابكم الشاهانية . . . ولا يخفى على حكمة جلالتكم أن الدواء الشافى لهذه العلة هو اجتثاث أسبابها التى نعرفها حق المعرفة ، فإذا أزيلت الأسباب زال المرض . . . فإذا أصدرتم خطاً همايونيا جديداً حَتَمْتُمْ به اتباع القوانين والنظم والمساواة بين الغنى والفقير والكبير والصغير فى نظر القانون ، وأرجعتم المنشآت الخيرية إلى أصلها (وكان السلطان استولى عليها) ، وصرفتم الأموال فى سبيل ما خصصها له الواقفون ، وأعدتم مرجع أمور الدولة إلى الباب العالى (الوزراء) فيقر قراراته ويعرضها على جلالتكم ، ولم تستأثروا جلالتكم بشىء من حقوق الدولة المالية والملكية ولم تصرف المالية قرشاً واحداً إلا برأى الباب العالى ، وحُدِّدتْ وظائف كبار الموظفين وأصاغرهم ! وجُعِل الوزراء مسئولين عن نتائج أعمالهم ، وحَتَمْتُمْ ذلك على خواصكم ورجال حاشيتكم — إذا تم ذلك كله حصلت النتيجة المطلوبة بعون الله تعالى ، ووصلت الدولة إلى الطريق الذى ترجوه جلالتكم .

---

(١) الجادة : الطريق . (٢) الأراجيف : الأخبار الكاذبة السيئة .

هذه الأقوال هى نتيجة أفكارنا ، وربما أخطأنا ... ونحن نطلب من جلالتكم تخليص الأمة — التى قد أصبحت مصالحها بين يديكم — من أزمتها الحاضرة . وعلى كل حال فالرأى لكم » .

فى هذا الكتاب مجمل أفكار مدحت باشا ونظرته إلى الإصلاح .

أعد مدحت باشا هذا التقرير وهو وزير العدل، وعرضه على الوزراء فاتفقت كلمتهم عليه ، واتفقوا على أن يرفعه الرئيس إلى السلطان عبد العزيز ، فقابله ولم يستطع أن يفاجئه ، فحدَّث السلطانَ أحاديث مختلفة ثم تدرّج إلى ذكر هذا الكتاب ، فلما سمع كلمة الإصلاح والشورى والدستور هاج هائجه ، وأصدر أمره فى الحال بعزل مدحت باشا من الوزارة ، وإبعاده بتعيينه والياً لسلانيك ؛ وبعد أيام عَزل شروانى وعينه والياً لحلب ، وبذلك أبْعَدَ الاثنين اللذين يذكران الإصلاح . ولم يمكث مدحت طويلا فى سلانيك فَعُزل بعد ثلاثة أشهر ، وأخذ يصلح فى مزرعته ، ويفكر فى أمته .

— ٣ —

هذا مدحت باشا — فى مزرعته — يفكر ، كل محاولته فى الإصلاح ضاعت سُدًى ، لصلابة السلطان عبد العزيز الذى يأبى أن يسمع كلمات « الشورى ، والدستور ، والعدل ، والحرية ، والأمة » ؛ وكل من نطق بهذه الكلمات كان عُرضة للنفى والتشريد والقتل والعزل كما حدث له .

إن السبب الوحيد لتذمر المسيحيين فى الدولة هو فِقْدَانهم الحرية ، فمتى مُنحوها عَطفوا على الدولة وشعروا أنهم جزء منها .

وسَبَب ضعف المسلمين هو فقدان الحرية ، فمتى شعروا بحريتهم أقدموا على عملهم ونَشِطوا ، وكسَبوا ، وتعلموا ، واستخدموا ذكاءهم ومواهبهم لإسعاد أنفسهم وأسرتهم وهيئتهم الاجتماعية .

وفقدان الجميع الحرية يملؤهم خوفاً ، ويفقدهم رجولتهم ويخلقهم بأخلاق العبيد : من ذلة وضعة ، وعدم التفات إلا إلى المأكل والملبس ينالونه من أخسّ الطرق . وليس الذى وقعنا فيه من طبيعة الإسلام فى شىء ، فالإسلام يسوّى بين الغنى والفقير فى الحقوق والواجبات ، وبين الوزير وراعى الغنم ، ويجعل أمرهم بينهم شورى ؛ وهذا السلطان يكره كلمة الشورى كما يكره الموت . والإسلام جعل من أهم قواعده الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وهذا السلطان لا يسمح لأحد أن يأمر بمعروف ولا أن ينهى عن منكر .

إن الشورى الإسلامية نُظمت فى العصر الحديث بما يسميه الأوربيون البرلمان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تشكل فى المدنية الحديثة بحرّية الصحف فى النقد ، وحرية الأفراد والجماعات فى التأليف ، وإبداء الآراء فى صراحة ، يستحسنون ما يرون ، ويستنكرون ما يرون ، ويخطبون كما يشاءون . فلا أحدَ معصوم ، ولا الحكومة معصومة ، ولا الوالى معصوم ، وإنما الذى يقوّمهم ويخيفهم ويلزمهم الجادّةَ يقظة الرأى العام وحريته فى النقد ، وهذا هو ما سُمى فى القرآن : بالتواصى بالحق . كل هذا واضح جلىّ ولا بد منه ، ولكن إرادة السلطان عبد العزيز هى الصخرة التى تتكسر عندها كل هذه الآراء .

أرض الدولة العثمانية أخصب أرض فى العالم ، وهى مع ذلك أفقر أرض لهجرة كثير من أهلها بالظلم ، وإثقال كاهل من بقى بالضرائب . ولا شركات ، ولا مصانع ؛ فالقطن كثير فى البلاد ومع هذا فالمنسوجات القطنية تُجلب من أوربة ، حتى الطرابيش التى نضعها على رءوسنا ، وعلب الكبريت التى نُشعل بها نيراننا نجلبها من الخارج ؛ وكل المواد الأساسية متوافرة عندنا ، ولكن لا عدل ولا أمن على المال ، فلا شركات ولا صناعات . ولا يتأتّى العدل إلا بالقوانين العادلة ، والمحاكم العادلة ، وهذه لا تكون إلا بالحرية ، أى الدستور . كل من جاهر بالإصلاح

أبعد ؛ ففؤاد باشا مات محتقراً مَهيناً ، وعالى باشا دُسَّت له الدسائس حتى عزل من منصبه ، وهما ما هما فى الكفاية والاستقامة ؛ وإنما يقرّب أمثال محمود نديم الشرِه الجاهل الذى يقدِّم مال الدولة للسلطان ، ثم ينتهب لنفسه ما نالته يده .

رحم الله فؤاد باشا وعالى باشا ، فقد رأيا أن السلطان لا يسمع لقولهما فى الإصلاح ، ففكرا فى حيلة لطيفة : أن يشوِّقا السلطان عبد العزيز لزيارة أوربة ، وينتهزا فرصة زيارته للعواصم الأوربية فيبيِّنا له ما وصلت إليه من النظام والتقدم ، ويشعراه من طَرْفٍ خفىّ بأن سبب هذا كله حُسْن الإدارة وصلاحية الحكم ، لعله إذا عاد تحفّزت نفسه لحسن التقليد ، فأصغى إلى المصلحين وشجعهم على الإصلاح ، وسار فى أموره غير سيرته ، والتفت إلى رعيته ، ولكن خاب فألهما فقد عاد أشد إسرافاً ، وأكثر تبذيراً فى ملذاته . عاد ووعد ثم أخلف ما وعد ؛ وكل ما فعل أن حقَد عليهما لأنهما أشارا عليه بانتخاب مجلس فى كل ولاية يجدَّد كل سنة لمشاركة الوالى فى أعماله ، وبذل النصح له ، فرأى أنها فكرة شيطانية يراد منها التدرج إلى البرلمان أو الدستور ، ذلك الشَّبَح المخيف . وكل ما جنته البلاد من هذه الرحلة إنشاؤه مصانع ومتاجر باسم خزانته الخاصة لا باسم الشعب . ثم هذا السلطان يستدين ويستدين ؛ فقد كانت ديون الدولة فى آخر أيام السلطان عبد المجيد ٢٥ مليون ليرة ، فبلغت بعد ١٢ سنة — بفضل عبد العزيز — ٢٥٠ مليون ليرة ، فما مصير الدولة إذا استمر الحال على هذا المنوال ؟ . يظهر أن لا أمل فى الإصلاح مع وجود « عبد العزيز » ، بل لا أمل حتى لو أصدر لوائح الإصلاح ، وأوامر إنشاء القوانين للمحاكم والنظم للمدارس ، فقد جر بناه فرأيناه يطأطىء للعاصفة حتى تمرّ ، فإذا مرت عاد سيرته الأولى ، وحل ما عقد ، ونقض ما أبرم .

لم يبق إلا أمر واحد ، وهو تهيئة النفوس لعزله ، ووضع الخطط المحكمة لإنزاله عن عرشه ؛ ومع الأسف لا يمكن أن يتم ذلك إلا بالجيش ، وفى هذا خطره ،

ولكن قد تعلّمتُ فى جامع الفاتح أن الضرورات تبيح المحظورات . فإذا تمت الأمور وعُزل عبد العزيز ، وأقيم مكانه سلطان جديد أقامته الأمة بقوتها ، وأعلن — يوم توليته — الدستور ، شعر بأن الأمر بيد الأمة فأطاعها ، وأنه مَدين لعرشه بالدستور فاحترمه ، وسارت الأمور سيراً حسناً : دستور نافذ ، وسلطان مطيع ؛ وبدأنا حياة جديدة كلها خير على الأمة ، وسرنا فى الطريق الذى سارت فيه الأمم الحيّة ، نأخذ محاسنهم ، ونتجنب أخطاءهم ، فإذا الحياة سعيدة ، والعدل شامل ، والدستور مكفول ، فلنسرْ على بركة الله .

هكذا فكّر مدحت ، وهو يشرف على الإصلاح فى مزرعته ، والفؤوس تضرب فى الأرض ، والنواعير تبكى بدموع غِزار .

سارت الأمور أول الأمر كما فكر تماماً ، فها هو يدبر الحركة ويتصل بالشبان والشيوخ الذين سئموا هذه الحال ، ويتفق معه فى الرأى حسين عونى باشا (سر عسكر الدولة) ، وهما يتصلان بناظر البحرية وشيخ الإسلام ، ويتفق الجميع على خلع عبد العزيز فى يوم معين . حتى إذا جاء اليوم أتى الأسطول فرسا أمام سراى طوله بغجة ، واجتمعت العساكر فأحاطت بالقصر ، ودخل على السلطان من أبلغه خبر العزل ، فاستخفّ بهذا الخبر ، فأشهدوه العساكر والأساطيل والجموع المحتشدة فاستسلم ، وأنزلوه من السراى ، ووضعوه فى قصر فخم ومعه والدته وثلثمائة أنثى ، بين زوجات وجوار مملوكات ووصيفات وخادمات ؛ واختصروا حاشيته فاستغنَوْا عن ١٢٠٠ سائس و ١٠٠٠ طبلكار (حامل طبليّات الطعام) و٦٠٠ «قوار بى» وأمثالهم من الخدم ، وقطعت مرتباتهم للضائقة المالية التى حلت بالدولة . وبعد بضعة أيام وُجد السلطان مقتولا ، فقيل إنه اعتُدى عليه بالقتل ، ويرى الأكثرون ، ويقرر جمع من الأطباء ، ويؤكد ذلك مدحت ، أن السلطان أخذته العزة فقطع شريانا من ذراعه بمقراض[1] فمات .

---

(١) مقراض : مقص .

ومهما كان فقد بويع السلطان مراد فلم تمض عليه أيام حتى ظهر جنونه واختلط عقله ؛ فوُلِّيَ السلطان عبد الحميد بعد ثلاثة أشهر ، وحمل « مدحت » عبء هذه الأحداث الفظيعة والزَّبْكة الشنيعة ؛ وهو فى أثناء مرض السلطان مراد يجتمع بأعوانه ويدرس قوانين أوربة ونظمها ويختار أنسبها .

وكان فى ذلك يضع إحدى عينيه على النظم الأوربية والأخرى على حالة الدولة ، فما كل ما يصلح لأوربة يصلح لها ؛ وفى ذلك يقول : « إن أخذ القانون من أوربة ووضعه لنا لأنه أفادهم يشبه أخذ آلة من الآلات عندهم للنَّسْج وجلبها إلى بلادنا وليس عندنا فرد يقدر على إدارتها والاستفادة من سرعتها .

« وفضلا عن ذلك فكثير من القوانين لا يوافق كل الولايات فى دولتنا ؛ فالقانون الذى يوافق ولايات حلب وسورية و بغداد لا يوافق ولايات بروسة وأزمير وأدرنة ؛ وقد يكون القانون فى بعض الولايات عدلا ، وفى بعضها ظلماً ، فيجب النظر إلى هذه المسألة عند تغيير القوانين .

« و إن مسألة استقلال المحاكم ، وأصول جباية الأموال ، وقوانين الإدارة وغيرها من القوانين والنظامات قد استعملها الأفرنج فأفادتهم بسبب رقىّ الأهالى ومدنيتهم ؛ فقانون الأراضى مثلا يقضى علينا بتعيين المهندسين ، ومعرفة مقادير أراضى بلادنا وأصحابها ووضع الضرائب اللازمة ، وهذا لا يتم بواسطة كاتب واحد يتقاضى ١٥٠ قرشاً فى الشهر ، فالأفرنج يعينون لكل قرية لجاناً ومهندسين يمسحون الأراضى و يقدرون الضرائب ، ونحن لا نعرف لليوم عدد سكان بلادنا ولا مقدار أراضينا .

« فيجب تدريب الرجال و إلقاء أزمة الأمور إليهم بالتدريج . . . كما يجب تخصيص الأعمال لكل طائفة ؛ ففى أوربة للمالية اختصاصها ، وللحربية اختصاصها ، وكذلك للداخلية والعدل ، أما عندنا فالأمور كلها منوطة[1] بالوالى» .

---

(١) منوطة : متعلقة .

وهكذا عكف هو وأعوانه على هذا الإصلاح الذى يتلخص فى اختيار خير النظم الأوربية وأوفقها لحالة الدولة الاجتماعية ، والأخذ بيدها تدريجاً ، كلما ألِفَتْ خطوة انتقِل بها إلى ما بعدها .

وُيعِد القانون الأساسى للدولة ويرتب نظام مجلس المبعوثان ، فما وُلّى السلطان عبد الحميد حتى كان ذلك كله مُعَدًّا ، وتولى مدحت باشا الصدارة . وبعد أربعة أيام من صدارته بادر السلطان إلى إقرار القوانين ، وأعلن الدستور المؤسس على الشورى ، والمؤسس على اشتراك جميع الرعايا فى شؤون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ؛ ونُظِّم للدولة مجلسان : مجلس يُنتخب من الأهالى ويسمى بمجلس المبعوثان ، ومجلس تُعيّن الدولة أعضاءه ويسمى مجلس الأعيان . وتُلى هذا الدستور المشتمل على ١١٩ مادة بالآستانة فى محفل عام (١٤ من ذى الحجة سنة ١٢٩٣ هـ) وأمر بأن يكون العمل بمقتضاه فى جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية ، واستبشر الناس خيراً ، وأقيمت الأفراح والليالى الملاح . وكان يتضمن هذا الدستور حقوق الدولة وواجبات الوزراء ورجال الإدارة ، واختصاص كل مجلس من المجلسين ، وتنظيم المحاكم والديوان العالى والمالية إلخ ، وكل الدلائل تبشر بالخير . هذا مدحت أبو الدستور رئيس الوزراء ، وهذا السلطان عبد الحميد أتى بإرادة الأمة وهو مَدِين لها بجلوسه على العرش ، مدحت يؤيده وهو يؤيد مدحت ، والكل يخضع للنظام والحكم الديمقراطي ، فماذا ينتظر بعد ذلك إلا الخير ! !

هكذا قال الناس ، وهكذا قال مدحت .

لعله أخطأ إذ بالغ فى التفاؤل أكثر مما يلزم ، وكذلك أكثر عظماء الرجال تسحرهم الفكرة ، ويلعب بلُبِّهم المبدأ ، فلا يرون منه إلا النواحى البراقة ، كالفنان يرى فى شجرة الورد أزهارها ولا يرى أشواكها . استخفَّ بقوة الرجعيين ،

ولم يعرف لطهارته أساليب دسائسهم ، واقتنع بالبسمة على وجوههم ، ولم ينفُذْ منها إلى الغِلّ فى أعماق صدورهم ، ولم يقدِّر قوة العدد الجمّ الذى كان يغتنى من الظلم وسيفتقر بالعدل ؛ والذى كان يُثرى من كلمة مَلَق أو تسويد سطر بوشاية ، فأصبح خائفاً من العدل أن يجرده من ثرائه وينزله عن جاهه ؛ والذين كانوا يبشرون أنفسهم بمواتاة الحظ لأنهم فقدوا أن ينالوا شيئاً إلا ببذل الجهد .

وشىء آخر هامّ فاته ، وهو أن من عاش طويلا فى ظلّ العبودية لا يتعلم سريعاً مزايا الحرية ، وأن الأمم السابقة إلى النظم الديمقراطية لاقت الأهوال قبل أن تعتدل ، وتأرجحت كثيراً قبل أن تتوسّط ، والذى نفعها أنها لم يكن يطمع فيها طامع ، فقضت مدة التجربة وهى آمنة مطمئنة ؛ أما هـذه الدولة فلا ينتظر مدة تجربتها أحد ، فإذا بدأت تجرب قالوا لا تصلح ، وإذا أخطأت لم يقولوا إنه عَرَض مفارِق بل قالوا طبع ملازم .

فهذا مجلس المبعوثان يجتمع فيشتطّ بعض أعضائه فى القول من غير حساب حتى يثير بأقواله مشاكل ومخاوف ما كان أغناه عنها ، وكل ولاية تظن أن مبعوثيها نائبون عنها لا غير وليسوا نائبين عن الأمة ، وأن عليهم أن ينفذوا جميع رغائبها ولو كانت غير عادلة ، ولو كانت لا تتفق ومصلحة الدولة من حيث هى كل ؛ ويحمل البريد إلى كل مبعوث ما ينوء بفتحه بَلْه [1] قراءته : هذا يطلب عزل خصمه وتوليته بدله ، وهذا يلتمس رتبة ونيشاناً ، وهذا راغب فى وظيفة ، وهذا راغب فى ترقية ، حتى بلغ الحال أن مُكارِياً [2] سُرقت دابته فبعث إلى مبعوث ولايته أن يأمر بإعادتها إليه .

وربما كان هذا طبيعيًّا والنظام جديد ، والجهل عريق ، ولا بد من فترة تمر

---

(١) بله : بمعنى دع ، أى فضلا عن قراءته .

(٢) المكارى : مؤجر الدواب .

حتى يفهم الناس أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، وأن مبعوث الولاية نائب الأمة أولا وولايته ثانياً ، وأنه كلما خفف ناخبوه مطالبهم زادوه مقدرة على نفع أمتهم ؛ ولكنهم أنَّى لهم بمن يصبر على سخافتهم ، ويفسح الصدر لمراتهم ، والأعداء كثيرون فى الداخل والخارج وهم لهم بالمرصاد ؟ !

وزاد الأمر سوءاً أن روسيا إذ ذاك لم يرضها هذا الحال ، فاحتجت على ذلك وتأخرت فى الاعتراف بالنظام الجديد ، ولعبت بالبلقان فحركته ، وثارت الثورات فى أنحائه ؛ فثورة فى الصرب ، وثورة فى الجبل الأسود والبوسنة والهرسك ، والحروب قائمة ، وانتصارات الدولة لا تفيدها عند الدول ، وانتصارات عدوها تفيده ؛ والدولة فقيرة فى المال بما أسرف عبد العزيز ، وفقيرة فى رؤساء القواد ، فقد قتل حسين عونى باشا وغيره معه بيد أثيمة ، وروسيا تريد فصل البلغار عن الدولة ، ولكل دولة مطامع . ومدحت يتحمل كل هذه الأعباء الداخلية والخارجية فى صبر عجيب ، فنهاره فى تنظيم الشئون الداخلية ، وليله فى المشاكل الخارجية ، وفى ذلك يقول : « تحملت من المتاعب من يوم جلوس السلطان مراد ما يفوق القدرة البشرية ، وكنت أقول ليست هذه الحياة لى بل للأمة ، وقد وقع الوطن فى مصائب داخلية وخارجية ، فواجب أن أسعى فى تخليصه من مخالبها » .

وفيما هو كذلك سلم إليه أحد رجال المابين كتاباً فتحه وقرأه ، فإذا فيه عزله وإبعاده إلى خارج الدولة فوراً من غير أن يعرّج على أهله ، وذلك بعد شهرين من صدارته . فألح مدحت على رجل المابين أن يراجعَ السلطان فى بيان السبب ؛ فعاد وقال : إن السلطان يقول إن المادة ١١٣ من الدستور تُخَوِّلُ السلطانَ حق إبعاد الذين ترى نظارة الضابطة سوء حالهم ، وقد قدم ناظر الضابطة إلى جلالة السلطان تقريرين وقّع عليهما وهما هذان . ففتح مدحت أحدهما فإذا فيه : « إن

جاسوساً سمع ضابطاً يقول لصاحبه فى أحد المقاهى إن مدحت سيكون رئيس جمهورية » فاكتفى مدحت بهذا ولم يفتح الثانى ، وقال : « إن بلادى التعيسة كمريض حضره نُطُسُ[1] الأطباء ، وعالجوه حتى كاد يُبِلُّ من مرضه ، فاندس عدوّ له فسقاه سمًّا قضى على حياته » . وأذعن للأمر وركب الباخرة « عز الدين » لساعته من غير أن يرى أهله .

وخاف السلطان من الرأى العام ، فطلعت الجرائد ومن ضمنها « الجوائب » ترمى مدحت بأفظع التهم ؛ هذه تقول إنه ضبطت أوراق تدل على خيانته ، وهذه تقول إنه أراد أن يجعلها جمهورية ، وهـــذه تقول إنه قد أوقع الدولة فى مشاكل خطيرة ؛ وأدّى الشعر رسالته ، وأنشئت فيه قصائد هجاء بليغة . وأظهر كثير من المعمَّمين ابتهاجهم ، وقالوا إنه يريد فصل السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية . والذى يقارن بين الجرائد منذ أربعة أيام و بينها اليوم يعجب لهـذا الانقلاب الغريب من مديح رنان إلى هجاء رنان . وسكت النـاس بين الدهشة والعجب ، والشك واليقين ؛ وشُرِّد رجال مدحت ممن أخلصوا له ولمبـادئه . ووسط هذه البلبلة الفكرية صـدر الأمر الشاهانى بتعطيل الدستور تعطيلا مؤقتـاً ، ولـكن ألا تعرف — أيها القارئ الكريم — مدة هذا التعطيل المؤقت ؟ ثلاثون سنة ! !

لم يكن الرأى العام حذِراً فخُدِّر ، ولا عاقلا فخُدع ، ولا قويًّا فامتُهن .

— ٤ —

هذه الباخرة « عز الدين » تمخُر البحر لتقـذف به فى ثغر من ثغور أوربة ، وقد ضاعت كل آماله ؛ فـكل ما حَزَر[2] من تقـدير الثورة ونتائجها ، والدستور وثباته ، والسلطان عبد الحميد وخضوعه لإرادة الأمة ، قُضِيَ عليه فى لحظة ، وزال من

(١) نطس : ماهرون .　　(٢) حزر : خمن وقدر .

الوجود فى لمحة ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه قبل جهاده المتواصل ، وكدحه المتتابع ، وكلّ ما فى يده الآن غضبُ السلطان عليه وعلى أتباعه ، وبعده عن أهله ، وتجرُّده من ماله .

لو أن أىّ إنسان عادىّ آخر مكانه لعن الإصلاح والمصلحين ، وترك الدولة تَجْنى جزاء ظلم سلاطينها ، وانتظر حتى يتشفّى بمنظر الفساد يهدُّ أركانها ، ويفتخر بأنه نصح فلم ينتصحوا ، وأنذر فلم يُصْغُوا ، فارتاحت نفسه بصـــدق ما تنبّأ ، وحدوث ما أنذر .

ولكن لم يكن مدحت فى شىء من هذا ، فما مرت هذه الخواطر بنفسه حتى طاردها ، وأخذ يفكّر من جديد فى وسائل إصـلاح ما كان ، وعَجِب من نفسه فوصفها بقوله : « إن حبّ الإصـلاح قد اختلط بدمى فكان كالمرض المُزْمِن لا يُبرأ منه »

فكّر سريعاً ، ووصل إلى النتيجة سريعاً ، فرأى أن روسـيا تحارب بلاده وتجمع لها جيوشها الجرّارة ، ويذهب القيصر بنفسه إلى ميدان القتال لتحميس الجند ، والدول كلها تتنبّأ بنصرتها ، فواجبـه — إذن — أن يؤلّب الدول على روسيا ما استطاع ، ويبيّن لكل منها الأضرار التى تنالها من هزيمة الدولة العثمانية ، وتعديل خريطتها . فهو فى أسبانيا يتصل بساسة انجلترا وفرنسا ، ويحاول إقناعهم بآرائه ، ثم يذهب إلى إنجلترا لهذا الغرض . ويُبرق إلى المابين يقول : « قد سعيت مدة إقامتى فى عاصمة بلاد الإنجليز بما يعود على دولتنا بالنفع ويرفع شأن حكومتنا ، وحاولت إقناعهم بعقد صلح يحفظ الدولة وعظمتها ، وأفتخر أنى وُفّقت إلى ذلك بعض التوفيق » ؛ ثم يذهب إلى ڤيينا لهذا الغرض ويُبْرِق فيقول : « أنا اليومَ فى (ڤيينا) أبذل الجهد لترويج نفس المساعى ... وآمُل إخبارى بما يوافق مصلحة الأمة لأستعين به على أمنيتى الوحيدة ، وقد وَقفتُ حياتى لتخليص الدولة من ورطتها ،

وأنا قادر على القيام بأعباء ما يُطلب منى ، ومصلحة الوطن تضطرنى إلى ذلك» .

وكانت تعترضه صعوبة أن بعض الدول تردُّ عليه بأنه ليس مفوّضاً ، ولا له صفة رسمية يتكلم بها ، وأنه ليس إلا رجلا منفيًا ، فطلب من الدولة تصحيح موقفه لإتمام مساعيه فلم يجد سميعاً !

وأغرب ما فى الأمر بعد ذلك أن زفَّ إليه « ناظر التشريفات » بشرى ذِكْرَتِهِ بمحضر السلطان ، فسأل عنه : كيف يعيش ؟ فقال « ناظر التشريفات » : إنه فى حالة بؤس ، ينتقل من بلد إلى بلد ، ويعيش بالقَرْضِ ؛ فظهرت رِقَّة قلب السلطان وبكى ، وقال : أرسلوا له ألف ليرة ؛ ثم يحتم الكتاب بأنه يطلب منه شكرٌ السلطان ، وتضرعه إليه بالعفو عنه .

ظن المسكين « ناظر التشريفات » أن كل النفوس ذليلة كذلّته ، مَلِقَة كملقه ؛ ولكن هذا الكتاب وقع من نفس مدحت الأبيّة موقعَ السهم المسموم فى الفؤاد الجريح ، فهاج وثار ، ورد عليه فقال :

« لقد عبرتم للسلطان عن حالى بأنها حال بؤس وفقر وارتحال ، تستدرُّون بذلك شفقته ، وهذا وصف لا يوصف به إلا فاقد الشعور أفّاق [1] ، لا رجل مثلى عمل ما عمل ، وتولى الصدارة بجدارة .

« وأنا كما وصفتم من أسباب عيشى وفقرى ، فقد اقترضت عشرة آلاف فرنك من خرستاكى فى نابولى فنفدت ، وأنا اليوم أسعى فى قرض جديد أسدّ به رَمَقى ورمق أسرتى فى الآستانة ، ولكنى فخور بذلك ، فقد وُلدتُ عارىَ الجسد ، وسأموت عارى الجسد ، وأنا ابن الحاج أشرف أفندى ونعم النسب ، ومع هذا فلا أنتسب إلا إلى الله ، وذخيرتى أنى عاهدته ألاّ أقول إلا الحق ، ولو أوصلنى إلى مثل ما ألاقيه الآن من الشدائد .

---

(١) أفاق : متنقل فى البلاد للتكسب والاغتنام .

« وما الذى فعلت من إجرام حتى أطلبَ العفو ؟ ! لقد سعيتُ فى تولية السلطان مراد بعد عبد العزيز ، فلما مرِض سعيتُ أن يجلس مكانه السلطان عبد الحميد ، وكان جلوسه مقروناً بإعلان الدستور ووضع خُطط الإصلاح .

« ومنذ خروجى من الآستانة وأنا أفكر فى الدولة وسبيل إنقاذها من المهالك ، ولا أفكر فى نفسى ، فماذا فى هذا مما يُعتذر منه ؟ .

لقد بلغتُ السادسة والخمسين، ولا أمل لى فى الحياة ! فلم يتجاوز أسلافى الستين، فأيامى معدودة ، وكل رجائى أن أعيش منفرداً ، وأدعو لولىّ النعم الأعظم » .

هذه خلاصة كتاب أقل ما يوصف به أنه يعبّر أصدق تعبير عن قوة مدحت وعظمته ورجولته وسمو نفسه .

لقد وصف « ناظر التشريفات » هذا الكتاب لما قرأه بأنه كالعروس عَطِلَتْ من حَلْيِها ، وعَرِيَتْ من ثيابها ، ولكن أين يكون الجمال إذا لم يكن هذا جميلا ؟ وفى الحق أن هناك عيوناً لا ترى الجمال الحق فى الإباء والشَّمَم ، وإنما ترى الجمال المتصنع فى النفاق والمَلَق .

كان يوماً يصطاف فى الريف عند صديق له من دوقات الإنجليز ، وإذا بسفير الدولة العثمانية فى إنجلترا يقابله ، ويبلغه أن السلطان سمح له أن يقيم مع أسرته فى جزيرة « كريد » . فذهب إليها وعاش فيها مع أسرته نحو شهرين . ثم عين والياً لسورية ، ثم لأزمير ، ثم كانت مأساته التى خُتمت بها حياته كما سنبينه بعد .

* * *

هذا هو العمود الفقرى فى حياة مدحت ، وله بجانب هذا أعمال فرعية فى الولايات التى تولاها ، وهى أعمال خالدة لا تزال تُذكر من أهل البلاد التى عَمِل فيها بالحمد والثناء .

لقد وَلِيَ العراق ، وولى سلانيك ، وولى الشام ، وولى أزمير ، وكان له فى كل أولئك خطة واحدة ، يَعْمِدُ — أولا — إلى الأشقياء الذين يعبثون بالأمن فيضربهم ضربة تنخلع منها قلوبهم وقلوب أمثالهم ، فإذا الأمن شامل والهدوء عام . ثم ينشر العدل بين الناس فيطمئنون على أنفسهم وأموالهم ؛ ويعمل بالشورى فيحيط نفسه بمجلس من خِيرَةِ الولاية يستشيرهم فى أمورها ، ويجرّئهم على قول الحقّ فى صراحة ، ويعلمهم كيف يعالجون المشاكل ؛ ثم يصلح الطرق ويربط الولاية بشبكة محكمة ؛ لأن ذلك يعين على الإسراع فى ضبط أمورها ؛ ثم يضع الخطط لاستغلال منابع الثروة فى البلاد على خير وجه ، كل ولاية بما يناسبها ، حتى يزيد نتاجها على نفقاتها ؛ ويأخذ من المال الناتج لإنشاء المدارس ونشر التعليم ، وهو بعمله هذا يضع نواة العلم فى بلاد فشا فيها الجهل وكادت تَعُم فيها الأُمّيّة .

تولى العراق سنة ١٢٨٥ هـ — سنة ١٨٧٠ م فى عهد السلطان عبد العزيز فأخضع رؤساء العشائر بعد عنادها ، ودوّخ العصاة وطاردهم فى أوكارهم ، ثم أصلح أداة الحكومة ، فأقبل الزراع على زراعتهم ، والعمال والصناع على عملهم وصناعتهم ؛ وأنشأ أول مطبعة فى بغداد ، وشجّع على إنشاء جريدة سماها « الزَّوْراء » ؛ وحثّ الشركات على العمل ؛ فشركة تسيِّر البواخر بين بغداد والبصرة ، وشركة تسير الترام بين بغداد والكاظمية ؛ وقرّب المسافة بين بغداد والبصرة بتحويل مجرى دجلة ، وبثّ المهندسين الزراعيين يدرسون حالة البلاد الزراعية ، وأنشأ مُتَنَزَّهاً عامًّا فى بغداد سماه « بستان الأمة » « ملّت باغجه سى » .

ومن طريف آرائه أنه عرف أن « بالنجف » كنوزاً مدفونة ، فيها كثير من الأحجار الكريمة كانت تُزيَّن بها الأضرحة والمشاهد ، قد أخفيت أيام هجوم الوهابيين وهدمهم للقبور ، فأخرجها مدحت ، وقوّمها الخبراء بما يزيد على ثلثمائة ألف ليرة ؛ فاقترح مدحت بيعها وإنشاء خط حديدى بثمنها بين

النجف وإيران (إذ كان قد اشترك فى التبرع بها كثير من الفُرس) ، فلم يوافقه العلماء على ذلك فبطل المشروع . كذلك من طرائفه أنه ألّف مجلساً للشورى فى بغداد يرجع إليه فى أمور الولاية ، ولم تكن الناس تألف الجهر بالرأى والشجاعة فى القول ، ولا تعدُّ لهم بجانب رأى الوالى رأياً ، فجمعهم يوماً وقال لهم : إنى أرى الحاجة ماسّة إلى استئذان الباب العالى فى زيادة الضرائب لتنفيذ ما نرى من وجوه الإصلاح فماذا ترون ؟ قالوا جميعاً موافقون ، هذا هو الرأى ، وهى الحكمة ؛ فكتب بذلك محضراً وختمه جميعهم ؛ ثم جمعهم فى اليوم الثانى وقال : لقد فكرت فى أمر زيادة الضرائب فتراءى لى أنها ظلم فادح لا يستطيعه الناس ، ولكن محضر أمسِ أُرسل ، فإذا رأيتم هذا الرأى صواباً كتبنا آخر ألحقناه به ، وبيّنا الأسباب الموجبة لنقضه ، فقالوا : نِعْمَ الرأى ما رأيت ؛ ووقّعوا على الثانى كما وقعوا على الأول . فأمسك بالمحضرين هذا بيد وهذا بيد ، وقال : والله ما أرسلته ولكن أردت أن أختبركم ، فما قيمة المجلس إذا رجعتم دائماً إلى رأيى وحده ؟ ! ثم ألقى عليهم درساً قاسياً فى الحرية وفوائدها ، والشخصية وتكوينها ، والاستقلال فى الرأى ومزاياه .

وكانت ولايته للشام أصعب ، فقد تولاها فى العهد الحميدى بعد موقفه من عبد العزيز واتهامه بالجمهورية ، وعداء السلطان والمابين والوزراء له . كلهم يتربص به الدوائر . ثم مشاكل الشام أعقد من مشاكل العراق ، فهذا مشاكله بَدْوُهُ وعشائره ، وعلاقته بإيران ونحو ذلك ؛ أما مشاكل الشام فأخطر : أمور لبنان تتصل بفرنسا ، وأمور الدروز تتصل بانجلترا ؛ ولكل دولة مصالح ومدارس وكنائس ، وغير ذلك . فكان أول ما لفت نظره ما ذَكَر من « أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل . . . ومدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدماً ملموساً ، وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث

القرآن ، فكنتُ أفكر فى أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا » .

فشكّل الجمعيات ، وجمع الإعانات ، وفتح المدارس ، وأصلح المساجد وجعلها مدارس ، ووضع عقوبة لولىّ أمر الطفل إذا بلغ ابنه السادسة ولم يرسله إلى المدرسة ، واستعان بأموال الأوقاف فى أمور التعليم ، وتأسست فى عهده « جمعية المقاصد الخيرية » وانتشرت شُعَبها فى البلاد .

ولما حاول الإصلاح الاقتصادىّ والإدارىّ اصطدم بالدول ؛ فكانت فرنسا صاحبة امتياز لبنان ، وكانت الحكومة العثمانية خصصت لها خمسة وعشرين ألف ليرة من إيراد جمارك الشام ، فكتب إلى رئيس الوزارة بقطع هذا المبلغ فغضبت فرنسا ؛ وهكذا وهكذا من مشاكل ، والدسائس تُحاك حوله ، وتشاع الإشاعات بأنه يريد الاستقلال بسورية ، ويُستدل على ذلك بأن هاتفاً هتف أمامه « فليحى مدحت باشا » وأن كاتباً كتب « الخديو مدحت » . فلم يتمكن من الإصلاح فى الشام كما تمكن منه فى العراق ، بسبب ما لاقى من العناء فى الداخل والخارج . فيا لله للمصلحين !

وأخيراً نقل إلى أزمير ، فلم يطل بها مُقامه حتى كانت المأساة .

فبعد خمس سنين من وفاة السلطان عبد العزيز تحركت مسألة وفاته من جديد ، وأشيعت الإشاعات أنه لم ينتحر وإنما قتل بإيعاز مدحت وأصحابه . وبلغ مدحت وهو فى أزمير أنه يُراد القبض عليه والتحقيق معه ، وكتب إليه صديق له : « فاخرج إنى لك من الناصحين » . وعرض عليه بعض أصدقائه من الأوربيين ركوب باخرة معدّة وسفرَه إلى الخارج فرفض وقال : « كيف أرتكب الفرار لجريمة لا نصيب لها من الصحة ؟ » .

وبينا هو نائم فى داره إذا بالجنود تحيط به ، ويُقبض عليه ويرسل إلى الآستانة لمحاكمته بتهمة الاشتراك فى قتل عبد العزيز .

من عهد أن تولى السلطان عبد الحميد ، وهو لا يأمَنُ جانب مدحت ، ومن لَفَّ لفَّه ، ويخشى جِدَّ الخشية أن يعيدوا معه تمثيل دور عبد العزيز ؛ وبلغت به الخشية حد الهَوَس ، فكل قُوَى المملكة من مال ورجال وسمع وبصر مُسَخَّرة للمحافظة على شخصه ، ومراقبة مدحت وأمثاله ، لأن من قدر على البدء كان أقدر على الإعادة . وأخيراً اهتدى هو وأعوانه — للقضاء على مدحت وأصحابه — إلى هذه التُّهَمَة ، فدُبِّرت محاكمتهم ، ورتبت شهودهم ، ورسمت خُطة الإيقاع بهم . وبعد محاكمة صورية حكم عليهم بالإعدام . فتوسط الإنجليز وبعض سفراء الدول فاستبدل بالإعدام النفى ، ووضعوا فى باخرة سارت بهم إلى جُدَّة ومنها إلى الطائف . وأهينوا من يوم خروجهم من الآستانة بالتضييق عليهم فى مآكلهم وملبسهم ومنامهم ؛ وسجنوا فى قلعة الطائف ثلاث سنين ، وأُجرى عليهم العذاب ألواناً ؛ وكلما مر عليهم زمن وهم أحياء زادوهم تضييقاً حتى يموتوا ؛ ومن اشتد من الضباط عليهم رُقِّى ، ومن أخذته الشفقة عليهم أُبعد . ومدحت يرسل الكتب إلى أهله يطلب منهم مالاً يقيتات به ، ويَبذل كثيراً من الحيل فى إيصالها إليهم ، فإذا أرسلوا مالاً لم يصل إليه . وثمانية من سادة القوم منهم مدحت يعيشون على صحن من الحَساء[1] مصنوع من الماء وورق الفجل فى الصباح ، ومثله فى المساء ، يريدون بذلك أن يميتوهم جوعاً ولكنهم لا يموتون . وأخيراً ضاق ولاة الأمور بهم ذَرعاً فقرروا أن يَسُمُّوهم ، ولكن مدحت وصحبه يكتشفون المؤامرة .

فلما أعيتهم الحيل أوعزوا بخنق مدحت فخنق . وكان آخر ما كَتَب كتاب إلى أهله جاء فيه : « سيكون هذا المكتوب آخر ما أكتب فيما أظن .

فقد أخذوا منا الأقلام والمداد والورق ، وضيَّقوا علينا الخناق ، وقصدوا

---

(١) الحساء : ما يحسى ، أى : يشرب .

تسميمنا واحداً بعـــد واحد ، ولـكن ظهرت نيتهم .

ولابد أن يصـلوا يوماً ما إلى غرضهم . فإذا جاءكم خبر وفاتى قبـل كتابى فلا تحزنوا . وأنا أرجو من الله المغفرة فقد مِت فداء الوطن ، وأستودعكم الخـالق الباقى » .

* * *

قضى مدحت حياته كلها فى الإصلاح الاجتماعى ، يختار من المدنية الحديثـة أحسن ما وصلت إليـــه فى تنظيم الحـكم على أساس الشورى التى تتفق وتعـاليم الإسلام ، ويأخـذ خير أساليبها فى نشر العلم وتنظيم الحياة الاقتصادية للبـلاد ، ويراعى فى ذلك كله مستوى الأمة ومقدرتها على الامتصاص ، فيعجّل ما أمكن ، ويؤجل ما لم يمكن إلى أن يمكن ، ويعـــدّل ما يأخذه حتى يتفق وعقليةَ شعبه ، ويلتذ من العذاب يصيبه فى هذه السبيل ، لأنه ربط الإصلاح بعقيدته الدينية ؛ فالدين فى نظره ليس صـلاة وصوماً فقط ، ولـكنه مع ذلك عمل الخير لشـعبه ، ولا خير أرقى من الأخـذ بيد الأمة لتفهم حقوقها وواجباتها وتثور على من يقف عقبة فى سبيل تقدمها — ومن أجل هذا كان هادئاً مطمئنًّا مستبشراً وهو فى منفاه ، يرتقب الموت من ساعة إلى ساعة ، ويقول لأهله فى بعض كتبه : إنى أقرأ القرآن وأستعيد حفظه ، وأستعذب تكرار آية « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه » وأعدُّها أكبر عزاء لى ، وأهزأ بمـا أسمع من هجاء وافتراء ، فقد سلّمت كل أمورى لربى . إن الحيـاة محدودة وهى كالعوبة ، ومحنتنا يكافئنا عليها ربنا ، ولنـا أسوة فى الأنبياء والأولياء الذين قتـلوا أو سجنوا فصبروا على ما أصابهم .

فإذا فرغ من عباداته ، دوّن بعض مذكراته .

* * *

وقد خدمتْ أفكارَه شناعة وفاته ، أكثر مما خدمها جهاده فى حياته ، فقد أَلِمَتْ النفوس الخيِّرة مما أصابه ألماً مُمِضًّا ، وتأججت النار فى أفئدتهم وأفئدة من يتصل بهم ، وكانت أحداث الظلم المتوالية تغذيها بالوقود ، فلما التهبت النيران التهمت عبد الحميد كما التهمت من قبلُ عبدَ العزيز ؛ بل لعلها أيضاً هى التى التهمت فكرة الخلافة من أساسها فيما بعد .

* * *

والآن ننتقل بأجهزتنا إلى مصلح آخر من صنف آخر ، هو السيد جمال الدين الأفغانى .